الكـــرمـــل

أبحاث في اللغة والأدب

العدد ١٧ (١٩٩٦)

مراجعات في الكتب

كتاب تراثي جديد يكشف التواصل الموسيقي بين المغرب والمشرق

محمد البوعصامي: إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع، تحقيق عبد العزيز بن عبد الجليل، الاكاديمية الملكية المغربية، الرباط، ١٩٩٥، ١٧٥ صفحة.

التواصل بين المغرب والمشرق العربيين في إطار الحضارة الاسلامية تجلى وبوضوح في ميدان الموسيقى والغناء، فبالإضافة إلى الدراسات الحديثة التي تقارن بين الموسيقى المغاربية والمشرقية، لإظهار التواصل بينهما، ثمة كتاب تراثي بقي مجهولا إلى أن نفضت عنه الغبار الاكاديمية الملكية المغربية التي اصدرته ضمن سلسلة "التراث" في كتاب بعنوان "إيقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع".

الكتاب وضعه محمد البوعصامي منذ ثمانية قرون وبقي مخطوطا الى أن قام بتحقيقه الأستاذ عبد العزيز بن عبد الجليل الخبير في الموسيقى الأندلسية المغربية. وقد كتب مقدمة الكتاب الاستاذ محمد بن شريفة عضو الاكاديمية المغربية الذي يقول فيها: "ان هذه المخطوطة الفريدة من نوعها كشف عنها البحث الجاري حديثا بالخزانة الحسنية بالقصر الملكي". وبعد ان يتكلم مقدم الكتاب عن مدى ازدهار الموسيقى في المشرق والمغرب وعن التواصل المستمر في هذا الميدان بين شطري الحضارة العربية الاسلامية كما في كل الميادين الفكرية والعلمية والأدبية، يتحدث بإسهاب عن دور الموسيقى في المجتمعات وعن مكانتها وتطورها. ويشير مقدم الكتاب الى "أن المجتمعات الأندلسية والمغربية من اكبر المجتمعات العربية احتفالا بالسماع واهتبالا بالموسيقى، ونستطيع أن نقول ان تقاليد الغناء العربي نشأت لدى هذه المجتمعات منذ الفتح، وثمة أخبار تتحدث عن وفادة مغنيات

ومغنيين من المشرق الى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل وبنيه، ويستفاد من تلك الأخبار أن الغناء الأندلسي يومئذ كان مقتبسا من المشرق سواء في أصواته ام في أشعاره، وقد ظل الغناء المشرقي مرددا حتى مقدم زرياب" (ص أ).

هذا التواصل نجده مجسداً على أفضل وجه لدى صاحب المخطوطة الذي يصفه المحقق بأنه: "بليغ مصره وإمام الادباء في مغربه وعصره. رحل الى المشرق وأخذ عن الأئمة، أعلام هذه الأمة، وقصد المشيخة، وبهر في علم النحو، وعارض المناطقة، بالسن اعجازه الناطقة وخاض في البديع بحراً، ووضع من البيان للعقول سحراً، ويسّر من التفسير كل عويص وعسير، وعرف أخبار الدول، وفعل الزمان بالأمم الأول، ثم رجع الى المغرب بكل معنى يطرب، وانتهى الى فاس واستقر فمكث بها دهرا، أفاض على عرضات الأذهان علومه نهراً، ثم انتقل الى مكناسة، وحل حلول الظبي كناسة، فتصدر للتدريس وظهر ظهور ابن ادريس..." (ص ١٢).

من هذه الترجمة نرى أن البوعصامي رحل الى الديار المصرية وعرف اعلامها واخذ عنهم علوم اللغة والتفسير والمنطق والتاريخ وبلغ في علوم العربية درجة فاق فيها اهل عصره، وكان ايضا من كبار المعلمين والأساتذة في علوم الموسيقى، بل من المبدعين في امورها، الأمر الذي ادى باهتماماته الى اضافات في الطبوع الموسيقية. (وهي مقامات مويسقية تتنوع بتنوع البلدان ومدارسها الموسيقية).

طبع البوعصامي وقبله زرياب وغيرهما الموسيقى الأندلسية بطابع محلي يستمد من الواقع المغربي الذي عاشوه وعاصروه ونتج عن هذه الاجتهادات مدارس لعبت دورا كبيرا في تطوير الفنون الموسيقية. ونذكر منها مدرسة اشبيلية، ومدرسة بلنسة، ومدرسة غرناطة وغيرها. وكان لكل منها رواد ومنظرون. يقول المحقق في هذا الصدد: "والواقع ان الموسيقى تمغربت مع مر الزمن بما أدخل عليها المغاربة من تعديلات مختلفة في الحانها واشعارها وترتيبها..." (ص ٩).

أما عن حياة البوعصامي فقد بذل المحقق جهدا كبيرا لمعرفة الحقبة التاريخية التي عاش فيها، نظرا الى تضارب الروايات الكثيرة التي اهتدى اليها المحقق، فهو يقول في هذا الصدد: "فلا يسعنا سوى ركوب مسالك التقدير وضروب التخمين لمعرفة الفترة التي عاش فيها، وهي فترة نرجح أنها تتراوح بين اواخر القرن الحادي عشر واواسط القرن الثاني عشر، فإن المعلومات والاشارات المتفرقة

في المصادر التاريخية والفنية التي اهتمت بأخبار البوعصامي تدل على أنه عاصر السلطان المولى اسماعيل (١٠٨٢-١١٣٩) وخدم ابنه المولى عبد الله (١١٣٩-١١٧١) حيث كان من جملة شعرائه. وأنه عاصر جملة من الاعلام المغربية، وكان فيهم الاديب محمد بن الطيب العلمي، والشاعر محمد بن زاكور، والمؤرخ الصغير الافراني" (ص ١١).

كان البوعصامي يهتم بالكثير من الآلات الموسيقية التي كانت متوفرة آنذاك، فالمحقق يأتي برواية مساجلة أدبية جرت بين صاحب المخطوطة وبين صاحب طريقة هو ابو العباس سيدي احمد الشريف، "كان البوعصامي فيها بطل الميدان عازفا ومغنيا، والجو بين بروق ورعود، فاستخبر العشاق بتوشيته ورفل في حلل الغناء واردیته وعام في خلجان الاتقان واوديته" (ص ١٥).

أما المخطوطة نفسها فإنها تشتمل بدورها على مدخل ومقدمة وقسمين كتبها جميعا البوعصامي نفسه.

في المدخل يعرب المؤلف عن رغبته في جمع ديوان للأشعار الملحّنة يرتبه على النحو الذي يحقق الفائدة المرجوة. وفي المقدمة يعرض تعريفا لعلم الموسيقى وفائدتها فيقول: "علم الموسيقى بسط الأرواح وقبضها، وقد حفل ذلك سبب استخدام الموسيقى في اوقات السلم والحرب، وفي علاج المرض، واختبار امزجة الناس، ولذلك كانت منسوبة الى الطبيعة..." (ص ١٩).

يحتوي القسم الاول على مجموعة من الدروس الموسيقية النظرية: معرفة النغمات، ترتيبها، مواقع الضرب على العود ويقول المحقق في هذا الشأن: "من هنا يمكن ان نقول بكثير من الاطمئنان: ان اعمال البوعصامي جاءت لتشكل مرحلة هامة في التنظير للموسيقى الأندلسية المغربية على أساس قاعدة نظرية اكثر حداثة، وذلك في ظروف طبعتها سيادة المنظومات والمجاميع المختصرة..." (ص ٢١).

ويشكل القسم الثاني الجزء الاكبر من المخطوطة، فهو يتضمن مجموعة من المنظومات الشعرية لا تخرج عن الأصناف التالية: الأزجال، الموشحات، الأشعار. فالكاتب كان يستعمل لغة خاصة بالموسيقى ويورد امثلة كثيرة ليبرهن على نظريته ويشرح فيها الطرق التي استعملها، وهي طرق تعليمية تربوية تغزوها مصطلحات فنية يقول المحقق فيها: "يحفل النص الذي تتضمنه مخطوطة ايقاد الشموع بذكر جمل من المصطلحات يبلغ عددها ١٢٦ مصطلحا تحمل مفاهيم بحتة

واخرى تتصل بعلم العروض وسيرتفع هذا العدد الى ١٣٢ بزيادة ستة مصطلحات اخرى وردت في النص الذي نقله كتاب الانيس المطرب لمحمد بن الطيب العلمي، وهي كلها تتناول مستعملات الموسيقى الأندلسية المغربية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر..." (ص ٥٨).

يلقي الكتاب أضواء مختلفة على اجتهادات البوعصامي محمد وعن تأثره بالموسيقى المشرقية العربية، ثم عن ابداعاته. وهو حلقة مهمة في فن الموسيقى لأنه اغناها شعرا ونظرية وفنا، أما عن تسمية كتابه فيقول البوعصامي: "وسميته ايقاد الشموع للذة المسموع بنغمات الطبوع، ليوافق اسمه مسماه. وان شئت قلت: نزهة القوافي في حدائق الاغاني... لما كان مستلذ الاصوات مما يقوي الروح وبه تقتات، وكان من ابدع ذلك واعجبه واحسنه واحلاه ما اشتمل على اشعار راقت معانيها ورقت، جمعتُ من ذلك ما حضر بتقريب مجيد بهذا الديوان السعيد، ورتبتُه حسبما يظهر من ترتيبه المفيد..." (ص ٣٩).

ومهد البوعصامي للأشعار المستعملة بأبيات اغلبها من الغزل وذكر الحبيب "وهي من شعر ابي العلاء المعري، وشعراء غيره لم تذكر اسماؤهم..." (ص ٤٠).

يقع الكتاب في ١٧٥ صفحة شغلت مقدمة المحقق ٥٩ صفحة منها، ثم تأتي المخطوطة مع دليل بالقصائد التي اختارها ورتبها بحسب المواضيع التي تطرق اليها.

وكما كان البوعصامي حلقة وصل بين الابداع الموسيقي في المشرق والمغرب، كان المبدع الاسلامي ينتقل بين هذين الفضائين، فيأخذ من هنا وهناك بلا حواجز ولا سدود ثم يعطي عصارة ما جمعه.

هكذا كان الموسيقيون الذين تركوا بصماتهم في هذا الميدان الابداعي، موسوعيين استفادوا وافادوا واغنوا الميادين الاخرى.

هكذا ايضا تفرع الغناء الأندلسي في مدارس شتى، اذ يمكن القول بالغناء الأندلسي المشرقي، كما يمكن القول بالغناء الاندلسي المغربي، الذي طبع باجتهادات محلية مختلفة، سواء في غناء "المألوف" او "الغرناطي" السائد في انحاء المغرب العربي والذي لا زال قائما حتى الآن.

الطيب ولد العروسي